الإعجاز البياني في قوله تعالى:
لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ

د. خالد إبراهيم مسلم الآلوسي
أستاذ التفسير في كلية العلوم الإسلامية الجامعة العراقية

يقول الله تعالى في سورة البقرة (١٧٧) :

«لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» .

إن هذه الآية آية عظيمة من أمهات الأحكام، وقد تضمنت قواعد جمة منهم من أوصلها إلى ست عشرة قاعدة، فقد جمعت فيها خصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئ عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال؛ فما على القارئ إلا أن يقف أمام روعتها ويتملّى من بلاغة القرآن وإعجازه.

وقد جاءت بأسلوب بياني معجز فقد ذكر (البر) بلفظ المصدر لكي يجتمع فيها أمران يدخلان ضمن فن الإيجاز فقوله : «وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ... »

أ– البر: بالمصدر وهو معنى من المعاني، فلا يكون خبره الذوات إلا مجازا، فإما أن يجعل: البر، هو نفس من آمن، على طريق المبالغة، قاله أبو عبيدة، بمعنى إطلاق المصدر على اسم الفاعل وهو كثير في كلام العرب ومنه في التنزيل (إن أصبح ماؤكم غوراً) أي غائراً .ويكون المعنى ولكن البار من آمن بالله .

ب– وإما أن يكون على حذف مضاف، والحذف إما أن يكون على حذف من الأول، أي: ولكن **ذا** البر، قاله الزجاج . أو من الثاني أي: بر من آمن، قاله قطرب، وعلى هذا خرجه سيبويه، قال في كتابه: وقال جل وعز: ولكن البر من آمن وإنما هو: ولكن البرَّ برُ من آمن بالله .

إما قوله تعالى في بداية الآية «**أَنْتُوَلُّوا**» فاسم ليس إما لكون «**أَن**» وما بعدها أعرف المعارف أو **لأن التولية معلومة والبر مجهول**، أي ليست التولية برا ونحن حينما نخبر نخبر عن معلوم وليس مجهولا.

وهناك توجيه آخر وهو إنما أخر ذلك لأن المصدرَ المؤولَ أعرفُ من المحلَّى باللام لأنه يُشبهُ الضمير من حيثُ إنَّه لا يوصف ولا يوصف به والأعرفُ أحق بالاسمية ولأن في الاسم طولاً فلو روعيَ الترتيبُ المعهود لفات تجاوبُ أطرافِ النظم الكريم وهذه نكتة أشار إليها أبو السعود في تفسيره.

– المجاز المرسل في قوله: «**وفي الرقاب**» أي وفي فك الرقاب يعني فداء الأسرى. والرقاب: مجاز مرسل من إطلاق الجزء وإرادة الكل. أي مساعدة الأرقاء على الحرية، ومعاونة الأسرى على الفداء بالمال، لأن الرق والأسر عبودية وذل ومصادرة للحرية، والدين يتشوف إلى إعتاق الأنفس، وإلى تحرير الناس، وإلى التخلص من قيد الرق بمختلف الوسائل المادية.

– قطع التابع عن المتبوع فقد نصب «**الصابرين**» وهو معطوف على مرفوعات فقد نصب على الاختصاص على ما هو المتعارف في كلام العرب في عطف النعوت من تخيير المتكلم بين الإتباع في الإعراب للمعطوف عليه وبين القطع قاله الرضي، والقطع يكون بنصب ما حقه أن يكون مرفوعا أو مجرورا وبرفع ما هو بعكسه ليظهر قصد المتكلم القطع حين يختلف الإعراب...

وقد حصل بنصب «**الصابرين**» هنا فائدتان: إحداهما عامة في كل قطع من النعوت، فقد نقل عن أبي علي الفارسي أنه إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن يخالف إعرابها ولا تجعل كلها جارية على موصوفها؛ لأن هذا من مواضع الإطناب فإذا خولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان. والفائدة الثانية أن في نصب الصابرين بتقدير أخص أو أمدح تنبيها على خصيصية الصابرين ومزية صفتهم التي هي الصبر.

– في قوله تعالى: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**»، حيث أتى بالخبر فعلا ماضيا(صدقوا) لإفادة التحقق والوقوع.

– في قوله تعالى: «**وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**»، حيث أتى بالخبر جملة اسمية (هم المتقون) لإفادة الثبوت.

وبهذا يتبين لنا الإعجاز البياني في القرآن الكريم وروعته وأنه لا يدانيه لفظ فهو واضح المعنى واضح الدلالة وحسن الاختصاص ودقة المدخل وأظهر للمعنى، وكما قال الجاحظ: وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة، وحسن الاختصار، ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى. وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع. والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم.